

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة

من القرن 9/3 إلى 15/9

د. آمنة سليمان البدوي
(الجامعة الأردنية)

مقدمة:

كثرت الرحلات المغربية والأندلسية وتعددت، لكن ما وصلنا من هذه الرحلات يعدّ قليلاً إذا ما قيس بعدد المرتحلين، وبالإرشادات التي وردت عنها في المصادر. وليس من شكّ في أنّ فريضة الحجّ كانت من أعظم البواعث على سفر الكثير من المغاربة في كلّ عام للحجاز للقيام بأدائها، وبعد زيارة الحرمين كان الكثير منهم يقصدون المقامات المباركة في المشرق كالمسجد الأقصى في القدس، أو قبر إبراهيم الخليل، ثم يعرجون على دمشق ومدن أخرى، وفي رجوعهم يقفون بمصر ثم يذهبون للفسطاط حيث جامع عمرو بن العاص، ثم يقطعون مفازة من برقة إلى طرابلس، ثم إلى تونس فالمغرب.

وقد يرتحل بعضهم بقصد الميل إلى الاستطلاع واكتشاف المجهول، أو الرغبة في ارتياد العلم، وقد تكون بعض الرحلات سفارية، كرحلة الغزال في القرن الثالث الهجري.

وقد تتبعت في هذا البحث ما استطعت من هذه الرحلات المطبوعة في مصادرها، والمخطوطة والمتفرقة في الكتب من خلال بعض المصادر والمراجع، وتتبع الإشارات التي وردت عنها، وقد رتبها زمنياً حسب بدء الرحلة، فإن لم يتعيّن زمن بدئها في بعض الرحلات المخطوطة، اعتمدت سنة وفاة المؤلف، فإن لم يتعيّن اعتمدت القرن الذي كانت فيه. وقد صنّفتها متسلسلة حسب القرون بدءاً بالقرن

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

الثالث الهجري، وانتهاء بالقرن التاسع الهجري. وقد لوحظ تزايد الرحلات في القرون الأخيرة من الوجود العربي في الأندلس والمغرب بصورة واضحة.
رحلات من القرن 9/3:

لعل أشهر سفارة أندلسية في القرن الثالث الهجري هي الرحلة التي قام بها يحيى بن الحكم الجياني الملقب بالغزال (772 / 156 - 864 / 250) من قبل أمير الأندلس لدى ملك النورمان، الذي كان جنوده قد شنوا حربا على الأندلس وأعملوا في بعض بلدانها نهباً وتخريباً وقتلاً، وبسبب اندحارهم أمام القوة الأندلسية الإسلامية، فكر ملك النورمان بعقد محالفة ودّ وصداقة مع الأمير عبد الرحمان الأوسط، فوجه سفارة بهذه المهمة إلى بلاد الأمير، وبعد الوقوف على رغبة ملك النورمان، ارتأى الأمير توجيه سفارة ردّاً على سفارته، فاختار يحيى بن الحكم الغزال⁽¹⁾. ويرى د. إحسان عباس أن ثمة سفارتين للغزال: إحداهما لدى ملك الروم في القسطنطينية، والثانية لدى ملك النورمان، فكانت الأولى بعيد سنة (821 / 206)، والثانية بعيد سنة (844 / 230). وقد تحدّث الغزال في رحلته عن كثير من الأمور التي أضحت معلومات عن بلاد المجوس، فقد عرفته على بلاد غربية، وأناس غرباء، وعادات يراها لأول مرة. والحكايات التي تروى في هذه الرحلة ليست كلّها من نسج الخيال وخاصة رفض الغزال أن يسجد لملك المجوس، ثم إعجاب ملك المجوس برأيه وحكمته، إلّا أن العنصر النسائي غالب على قصص تلك الرحلة، وافتتان الغزال بزوجة الملك ونوادره معها مبنية على خفة ظله وميله إلى الدّعابة⁽²⁾.

(1) عن حياة الغزال ورحلته، انظر أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط 2، 1982ق 2، ص 7، وأبو الخطاب بن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية، القاهرة 1954، ص 136-146.

(2) د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة بيروت، ط 6-1981 ص 162-163.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

وهناك إشارة لرحلة مخطوطة سبقت رحلة الغزال لعبد المجيد بن علي الزيادي المنالي الفاسي (ت 824 / 209) سمّاها (بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الحرام) وجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط، تحت رقم (1808) (184) ورقة تضمنت قصيدة رائية في مائة وتسعة وعشرين بيتا جامعة لمراحل الحجاز من مصر إلى مكة مع مناسك الحج، عليها شرح اسمه (إتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك)⁽¹⁾.
رحلات من القرن 10 / 4 :

لم تعثر الباحثة من رحلات القرن 10 / 4 إلا على إشارات عديدة لرحلة سفارية لإبراهيم بن يعقوب الطرطوشي (958 / 347) يهودي من أهل طرطوشة، وهو تاجر ممّن كانوا يعملون في طلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس، وهذا كان يقوم برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقلية وشمال أوروبا، وقد كتب رسالة إلى الحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الامبراطور أوتو الكبير على الأغلب، واحتفظ البكري بجانب كبير من هذه الرسالة، وقد عني بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كويك وفيجرس وجيورج ياكوب، فنشروه على حدة وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية.

ومن الباحثين من استبعد أن يكون إبراهيم بن يعقوب أندلسيًا، وغلب على رأيهم أنه من المغرب⁽²⁾، ولكن العذري يسميه الطرطوشي، وقد أورد له العذري قطعة تدلّ على أنه بالفعل كان أندلسيًا عارفا بشؤون الأندلس⁽³⁾، والقطعة التي أوردها البكري من رسالة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي تصف رحلته إلى شرق أوروبا، وكيف عبر البحر الإدرياتي، ووصل إلى بلاد صقلية الغرب، وزابراج وشرقي ألمانيا⁽⁴⁾، فيما عدا الفقرات التي أوردها عبد المنعم الحميري⁽⁵⁾. وقد أورد د. حسين مؤنس فقرتين

(1) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة المحقق، ص 76.

(2) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1967، ص 76.

(3) ترصيع الأخبار، ص 7-8.

(4) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، ص 77.

(5) محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص 512.

استطاع جمع شتاتهما من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط من الصفحات 226، 227 وقد أوردتهما مع الملحق في نهاية البحث.
رحلات من القرن 11/5:

من الرحلات المهمة في هذا القرن ، رحلة مخطوطة بعنوان (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) لأحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي (ت 1085 / 478)⁽¹⁾ وهو العنوان الحقيقي الطويل للكتاب الذي حملته واحدة من الأوراق التي يتألف منها النص والخاصة بالسفر السابع⁽²⁾، وقد ورد له اسم آخر عند ياقوت الحموي هو (نظام المرجان في المسالك والممالك)⁽³⁾، وقد حقق د. عبد العزيز الأهواني نصوصا من هذا المخطوط في كتاب حمل العنوان الأول، طبع بمعهد الدراسات الإسلامية بمديرية 1967، معتمدا على نسخة موجود أصلها في مكتبة خاصة تسمى مكتبة البديري في القدس، عثر عليه رشاد عبد المطلب في بعثة لمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وجده أوراقا مفرقة في صندوق هناك فصورها، والصورة مودعة في المعهد المذكور على ميكروفلم (رقم 30 من 612) وعدد أوراقه (48) صفحة، وكتب النسخة بخط أندلسي قديم واضح⁽⁴⁾.

ويكشف نص العذري عن جانب من عقليته، وهو هذا الميل الشديد إلى تصديق العجائب، والحرص على إيرادها في كتابه، ويعتمد على النقل من القزويني وغيره من الجغرافيين، فيما يضمنونه كتبهم من أحاديث الغرائب والعجائب، وقد غلبت عليه نزعة الرواية فاعتمد على السابقين من مؤرخي الأندلس مشيراً إليهم، أكثر من اعتماده على مشاهداته هو، وما يتطلبه ذلك من أسفار ورحلات ومشاهدة للناس، وتمحيص لأحوالهم. وفي هذا المخطوط أوراق خاصة بالأندلس تتألف من مجموعتين، مجموعة

(1) أحمد بن عمر الدلائي: رحل مع والده بعيد الأربعمئة إلى مكة فسمع الكثير من شيوخها، توفي سنة 1085 / 478، انظر جذوة المقتبس ص 214-217.

(2) ترصيع الأخبار، مقدمة المحقق (ج).

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 460.

(4) ترصيع الأخبار، مقدمة المحقق (ج).

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

تبتدئ بذكر بلاد تدمير، وهو أول ما يفتح به السّفر السابع، ويشمل الحديث على تدمير إحدى عشرة صفحة. ثم يجيء ذكر بلنسية في ثلاث صفحات، ثم سرقسطة وما والاها في ثلاث وعشرين صفحة، ثم وشقة وما والاها في ثلاث عشرة صفحة. أما المجموعة الثانية غير المتصلة فتذكر كورة إشبيلية وهي تجيء بعد إلبيرة، ثم الحديث عن لبله، ولم يوجد من نصوص السابقين بينها ما يدل على عدد أجزاء ترصيع الأخبار، وإن كان يرجح أنها بلغت سبعة، فقد انتهى الحديث عن الأندلس في السفر السابع، فهل كان انتهاء السابع بانتهاء الحديث عن الأندلس؟⁽¹⁾

ومن أشهر جغرافيين ورحالة القرن الخامس الهجري، أبي عبيد البكري الأندلسي (ت 487 هـ) نشأ في عصر ملوك الطوائف، وصفه ابن الأبار بأنه من مفاخر الأندلس، وهو أحد الرؤساء الأعلام⁽²⁾، وكتابه (المغرب في بلاد إفريقية والمغرب) جزء من كتاب المسالك والممالك، وقد طبع طبعة غير محققة بمكتبة المثنى ببغداد، ويروي فيه قصصا تشبه الأساطير عن جهاد الأندلسيين من المولدين والبربر والمستعربين ضدّ المسيحيين الذين انتشروا في بلدان الساحل الشرقي الأندلسي التي كانت تعرف باسم البلاد البحرية، وكان يمرّ بالمدن المغربية الإفريقية، ويذكر الأحداث التاريخية فيها، ويصف ماءها وهواءها، والأقوام الذين يقطنون فيها عاداتهم وعلاقاتهم، كما يروي ما فيها من عجائب وغرائب.

ويرتحل في أواخر القرن الخامس الهجري، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري⁽³⁾ في سن مبكرة بصحبة والده من إشبيلية قاصدا شمال إفريقية،

(1) ترصيع الأخبار، مقدمة المحقق (ط).

(2) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (595 / 1198 - 658 / 1252)، الحلة السرياء، تحقيق د. حسن مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ط1، 1963، ج2، ص 185.

(3) أبو بكر بن عبد الله بن العربي الإشبيلي المعافري، قاضي كورة إشبيلية، ولد سنة 468 / 1075، وارتحل للمشرق سنة 485 / 1092، دفن بفاس 543 / 1148، انظر عن حياته ورحلته أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت 1968، ج2، ص 25-28.

معرجا على بونة وتونس وسوسة، ويضطرّ للرّحيل إلى الحجاز، ثمّ يرحل إلى بيت المقدس، ثمّ يتابع الرّحلة إلى المدن الفلسطينية. وقد سجّل ابن العربي أحداث رحلته العلميّة والاجتماعيّة في كتابين، الأوّل (ترتيب الرّحلة للرّغب في الملة)، ولم يعثر إلى الآن على هذا الكتاب، وقد وردت منه نقول من ذلك ما نقله د. حسين مؤنس من خطبة شواهد الجلة، وقد نقل هذه الخطبة أو الرّسالة من مخطوط صورته د. محمود علي مكي من مكتبة القرويين في فاس، واستخرج معهد الدّراسات الإسلاميّة في مدريد نسخة لمكتبته، وهو المخطوط ذاته الذي أخذ منه ليفي بروفنسال نص مفاخر البربر، يقول ابن العربي من الخطبة: «وماسبق خير القضاء برحلتني إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها والعمر في عنفوانه، والغصن مائس بأفئانه، والكتاب محتوم، ومعني صارم لا أخاف نبوته... فجئيت من كلّ شجرة زهرة، ووعيت من كلّ صنف درره، وكشفت عن كلّ خفاء غوره، وافتقرت من كلّ فنّ فقرة، حسبما فسرته وأوضحته، وشرحته وبينته، وقررت ونزلته في كتاب (ترتيب الرّحلة للرّغب في الملة)، وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا، وسير الفضلاء معنا، ولحظهم لجانبنا بناظر التعظيم، ومقابلتهم ورودنا بالتجليل والتكريم، ووعدنا لهم على غاية الرضا والتسليم، وانقلابهم عنا بصفة المرتضى، وأتبعناهم جملا من طرائفهم، ونتفا من فوائدهم، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه الأوراق بشواهد الجلة والأعيان، في مشاهد الإسلام والبلدان لنا بمزية التعظيم والتوقير»⁽¹⁾.

وقد وردت الإشارة في هذا الكتاب من كلام ابن العربي في نفح الطيب عند حديثه عن المائدة في القدس حيث يقول: «وقد شرحت أمرها في كتاب ترتيب الرّحلة بأكثر من هذا»⁽²⁾.

أمّا الكتاب الثاني فهو كتاب (قانون التأويل)، وقد عثر عليه د. إحسان عباس ضمن مخطوطة محفوظة بمكتبة الحاج سليم آغا بأسكدار تحت رقم (499)، وتضمّ

(1) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، ص 406-407.

(2) نفح الطيب، ج 2، ص 37.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

المخطوطة كتابين لابن العربي أولهما كتاب (الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى) والثاني كتاب (قانون التأويل) وقد جاء في نهاية الكتاب الثاني، فرغ من نسخه في العشر الأول من شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وقد اقتصر على تقديم النصّ المتعلّق بالرحلة في مجلّة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكيّة في بيروت السنة (21) الأعداد (4-1) لسنة 1968م.

وقد زار ابن العربي في رحلته تلك، كثيرا من المدن مسجلا بعض المشاهد من الحياة العامّة، ومصورا بعض الصّعوبات التي واجهته مع والده ومن معه، ومن ذلك انكسار المركب حينما أبحروا قاصدين السّواحل المصريّة حيث هاج البحر، واشتدّت العاصفة يقول واصفا بقلمه ما حدث: «وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا البحر بزوله، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم، ونحن من السغب على عطب، ومن العري في أقبح زيّ، وقد قذف البحر بزقاق زيت مزقت الحجارة هيئتها، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحترمناها أزرا، واشتملناها لففا، تمجنا الأبصار، وتخذلنت الأنصار فعطف أميرهم علينا، فأويا إليه فأوانا، وأطعنا الله على يديه وسقانا وأكرم مثوانا، وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم طريف، وشرحه أنا لما وقفنا على بابه، ألفيناه وهو يدير أعواد الشاه، فعل السّامد اللاه، فدنوت منه في تلك الأظمار، وسمح لي بياذقه إذ كنت من الصغر في حد يسمح في للأعمار، ووقفت بإزائهم، أنظر إلى تصرّفهم من ورائهم، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في مجلس البطالة مع غلبة الصبوة والجهالة، فقلت للبياذقة: «الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شزرا، وعظمت في عيونهم بعد أن كنت نزرا، وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدنانني فدنوت، فسألني: هل لي بما هم فيه بصر؟ فقلت: لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرك تلك القطعة، ففعل وعارضه صاحبه، فأمرته أن يحرك أخرى، ومازالت الحركات بينهم كذلك تترى، حتى

هزمه الأمير، وانقطع التدبير وقالوا ما أنت بصغير»⁽¹⁾.

رحلات من القرن 6 / 12:

طاف الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (493 / 1099 - 560 / 1164) في الأندلس وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى وفرنسا وإنجلترا، ثم رحل لتأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، فزار مصر والحجاز وقد دون مشاهداته في رحلته الموسومة بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) واستعان الإدريسي في مؤلفه بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التي كانت في ميناء صقلية، إلى جانب ما استطاع الحصول عليه عن البلاد السيحية، بفضل رعاية الملك رجار ملك صقلية⁽²⁾، ولعل قصة الفتية المغربية من أشهر القصص التي رواها الإدريسي، وروى ما تخللها من العجائب والمخاطر.

ولعل أقدم ترجمة عرفت لكتاب (نزهة المشتاق) كانت إلى اللاتينية في بداية القرن السابع عشر الميلادي، وقد نشرت قطع كثيرة من كتاب الإدريسي، وترجمت كل قطعة إلى لغة من اللغات الأوروبية، وكان أول ما نشر من هذه القطع في روما سنة 1322 / 1878، ويضم المقدمات والجزأين الثاني والثالث من الإقليم الرابع بعناية ميكيلي أماري⁽³⁾، ونشرت بعد ذلك قطع خاصة بالمغرب والأندلس وألمانيا ووسط أوروبا وبلاد شمال أوروبا وإنجلترا وروسيا وفلسطين وآسيا الصغرى، كما طبع كتراد ميللر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة 1926م بالحروف اللاتينية، وقام المجتمع العلمي العراقي حديثا بطبع هذه الخريطة التي حدّدت العالم الإسلامي من قبل الغزو المغولي في القرن السابع الهجري، الثالث عشر ميلادي، وقد أعادها إلى العربية محققة محمد بهيجة وجواد علي، كما نشرت قطع من كتاب الإدريسي

(1) د. إحسان عباس، مجلة الأبحاث: (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل) السنة 21، العدد (1-4) ص 79.

(2) د. زكي حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، مصر، 1945، ص 65.

(3) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، ص 230.

بالعنوانات التالية:

* «صفة الهند وما يجاورها في البلاد»، جمع وتصحيح مقبول أحمد وعلي كره، الجامعة الإسلامية 1954م.

* «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» طبع في ليدن 1968م.

* «القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس» تحقيق وتقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر 1983م.

* «المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق باللغتين العربية والفرنسية»، حققه ونقله إلى الفرنسية حاج صادق، الجزائر 1983م.

وأعادت نشره مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1992م

أما أبو حامد الغرناطي (ت 565/1169) فقد ارتحل إلى المشرق سنة (508/1114) وسمع بها، وحدث بدمشق، ودخل خراسان، وكان يروي قصص عجائب شاهدها وأخبار سمعها، وسجل حوادث رحلته في كتابين الأول كتاب (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)، وقد حققه إسماعيل العربي، ونشرته المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1982. وقد اعتمد المحقق في تحقيقه عدة نسخ أشهرها مخطوطة المتحف البريطاني التي تحمل رقم (18535) وهي أقدم نسخ الكتاب المعروفة، وكتبت بإملاء المؤلف⁽¹⁾.

وقد جعل أبو حامد كتابه في أربعة أبواب : الأول في صفة الدنيا وسكانها، والثاني في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان، والثالث في صفة البحار وعجائب حيواناتها، والرابع في صفات الحفائر والقبور. وقد كان في كتابه رفيع الأسلوب، يقصه ويرويه من مشاهداته الشخصية المسلية، ومما ينقله عن الغير، مما يزيكه ويثقله بنقلته من العجائب والغرائب، وقد كانت القصص والحكايات التي يقدمها مسلية ومثيرة لكنها تكتسب طابعا من الحقيقة، ومن ذلك التفاصيل التي أوردها عن سيف مسلمة بن عبد الملك، وهي تحمل في الظاهر طابعا أسطوريا لكن أبا حامد شاهد بعينه المبنى الأثري

(1) تحفة الألباب، مقدمة المحقق.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

الذي أقيم لهذا السيف قبله بنحو ثلاثة قرون حيث يقول: «وفي بلاد دربند باب الأبواب، أمة يقال لها طبرسلان، وهم مسلمون أسلموا في زمن مسلمة بن عبد الملك، لما بعثه هشام بن عبد الملك، حين ولي الخلافة ففتح باب الأبواب، فأسلمت على يده أمم كثيرة منهم الكزان، والغيلان، والخيزاق، والزقلان، والعميق... وفيهم من تلك الجبال سبعون أمة، لكل أمة لسان، فلما أراد مسلمة الرجوع بعدما أسكن في دربند أربعة وعشرين ألف بيت من العرب، من الوصل ودمشق وحمص وتدمر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة، قال له الطبرسلان: أيها الأمير، إنا نخاف إذا انصرفت عنا أن ترتد هذه الأمم ونشقى في مجاورتها فأخرج مسلمة سيف نفسه، فقال: «سيفي بينكم هنا فما دام بينكم لا يرتد من هذه الأمم أحد. فعملوا لسيفه كالمحراب من الصخور، وأقاموه في داخله وهو الآن باق في تلك الصّخور، يزوره الناس»⁽¹⁾.

أما الكتاب الثاني لأبي حامد فهو (المغرب في بعض عجائب المغرب) وقد وردت فيه عناوين أخرى هي (نخبة الأذهان في عجائب البلدان)، و (المغرب من بعض عجائب البلدان)، وقد أخذ العنوان الأول (المغرب في بعض عجائب المغرب) من مخطوطة أكاديمية التاريخ بمدريد. وتوجد للمخطوط نسخة أخرى في مكتبة جوتا تحت رقم (1535)، وقد درسها هالر تحويج ديرنبور وكتب عنها مقالا وصف فيه المخطوط بأنه صغير الحجم، عدد أوراقه (114) ورقة⁽²⁾. وأبو حامد له جرأة غير معهودة في اقتحام المخاطر تذكّرنا بآبن بطوطة؛ فقد دخل إلى بلاد مجهولة الأحوال والألسن لا يدخلها إلا على حذر. وقد أطال التغرب وعاد إلى ديار الإسلام يحكي من العجائب والغرائب ما لا يكاد يصدّق⁽³⁾.

(1) تحفة الألباب، ص 98-99.

(2) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، ص 326-327.

(3) المصدر السابق، ص 326، نقلا عن النسخة التي اطلع عليها المؤلف من المغرب حيث ترجم أبو حامد لنفسه واصفا ما شاهد.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

ومن الرحلات في النصف الثاني من القرن السادس الهجري كذلك رحلة بن يامين التطيلي النباري (ت 569 / 1173) الذي يعطينا معلومات عامة عن أحوال اليهود في كل مدينة زارها، يصف أوضاعهم وطرق كسبهم ومركزهم العلمي والاجتماعي. وقد كان بنيامين تاجرا، لكنه خرج في رحلته تلك بدافع الاطلاع الشخصي، وكانت وجهته بالدرجة الأولى الشرق الإسلامي، فقد خرج من تطيلة فانحدر منها إلى برشلونة فسواحل فرنسا... إلى أن أطلّ على الشرق الإسلامي فراح يتنقل بين المدن العامرة والقرى الزاهرة في سوريا ولبنان، وزار أضرحة الأتقياء ومقامات الصالحين، وتنقل بين دجلة والفرات، وقد أعجب بما شاهده في وادي الرافدين من جماعات يهودية كانت تنعم يومئذ بالطمأنينة والرّفاهية في ظلّ الخلافة الإسلامية، ثم انتقل إلى جزيرة العرب (صحراء اليمن)، وكان ينقل بعض الأساطير والروايات التي كان قد سمعها أو رويت له، وينتقل بعد ذلك للحديث عن أرض الصين، ويقصّ أهوال بحارها ومخاطرها، وقد نقل ما سمعه من روايات تجار العرب عن تلك البلاد السّحيقة، فجاءت روايته قريبة الشّبه بما يطالع في سفرات السندباد البحري عن بحار الصّين ومهاالكها⁽¹⁾. وقد ترجم هذه الرحلة وقام لها عزرا حداد، وطبعت في بغداد 1945م.

وهناك كتاب (الاستبصار في عجائب الأمصار) لرحالة وكاتب مراكشي مجهول من كتاب القرن السادس الهجري، ولم يمدّنا المؤلّف خلال الكتاب بمعلومات تكشف لنا عن شخصيته، وفي الكتاب فقرات تبين أن المؤلّف قد عاش في عهد يعقوب المنصور الموحي الذي كان حكمه بين (580 / 1184 - 595 / 1198).

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام مختلفة هي : الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب. وقد عني في القسم الأوّل بوصف مكّة والمدينة بدقّة بالغة، أما القسم الثاني المتعلّق بمصر، فيوضع ضمن ماكتب عن عجائب العالم، فكل ما يحويه عبارة عن غرائب وأشياء مدهشة فريدة عن العادات، وال نوادر لأهل البلاد التي يشاهدها، وما إن

(1) رحلة بنيامين مقدمة المحقق.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

يترك المؤلف مصر حتى ينتقل إلى بلاد المغرب والسودان فيسجل ما يشاهده، ويعطي وصفا أكثر دقة⁽¹⁾.

وينقل صاحب الاستبصار عن ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي معلومات طريفة عن تجار العرب الذين لقيهم في ألمانيا مقبلين من بلاد المعجر، كما ينقل عنه خبر الزيتونة التي أوردها الدلائل نقلا عن الطرطوشي في كتابه (ترصيع الأخبار) إذ يقول: «وقد رأيت قدم خبرها أن ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي أخبر أن ملك الروم برومته سنة خمسين وثلاثمائة من الهجرة قال له: إني أريد أن أرسل إلى أمير المؤمنين بالأندلس قومسا حاذقا بهدية، وإن لم أعظم حوائجي عنده وأجل مطالبي قبله، وذلك أنه صح أن في القاعة الكبيرة كنيسة، وفي الدار منها زيتونة، إذا كان ليلة الميلاد نورت وعقدت وأطعمت من نهارها، فاعلم أن لشهيدها محلا عظيما عند الله - عز وجل - في تسليل أهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لي هذا فهو أجل عندي من كل نعمة في الأرض»⁽²⁾. وقد أورد صاحب روض القرطاس الكثير من المعلومات التي أوردها صاحب الاستبصار عن مدينة فاس⁽³⁾.

وقد نشر الفرد كرم منذ حوالي قرن الجزء الخاص بالمغرب من هذا الكتاب نقلا عن مخطوط كان في حوزته، وكانت هذه النشرة غير كاملة إذ تنقصها الفصول الخاصة ببلاد غمارة، واستقرار الأدارسة بالمغرب ومدينة سجلماسة، وبعد ذلك بحوالي خمسين عاما نشر أ. فانيان ترجمة فرنسية كاملة مصحوبة بهوامش وتعليقات واستخدم طبعة كرم، ومخطوطي الجزائر، ومخطوط باريس، ومع أن فانيان عمل في ترجمته في تكملة نشره كرم، وسد الثغرات التي كانت بها، إلا أن ذلك لا يغني عن

(1) الاستبصار، مقدمة المحقق.

(2) ترصيع الأخبار، ص 7-8.

(3) علي بن أبي زرع الفاسي (ت 741هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، الصفحات 15 وما بعدها، 180-186-187-188-190-193-194-196-197-202.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

النّصّ العربي⁽¹⁾ الذي هو بالأصل رسالة دكتوراة تقدّم بها سعد زغلول عبد الحميد إلى جامعة باريس عام 1958م، وطبع الكتاب في الإسكندرية في العام نفسه، وفقدت الطّبعة ثمّ أعيد طبع الكتاب في مطبعة دار الشؤون الثقافية في العراق 1985م.

ومن أشهر الرّحلات في هذا القرن، رحلة ابن جبير البلنسي الغرناطي (ت 614هـ) الذي ارتحل إلى المشرق ثلاثاً، وحج في كلّ واحدة منها فقد ترك غرناطة سنة 587هـ، ثمّ عاد إلى وطنه سنة 581هـ. وقد نقل مشاهدته في هذه الرّحلة من عجائب البلاد وغرائب المشاهدات، ولمّا شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد السّلطان صلاح الدّين، قوي العزم عنده في الارتحال ثانية سنة (585/ 1189) ثم عاد سنة 587/ 1191، منقطعا للحديث والتّصوّف، ثمّ رحل ثالثة سنة 614/ 1217، فوصل مكّة وانتقل إلى مصر والإسكندرية، وتوفي في العام نفسه.

وتحتوي رحلة ابن جبير معلومات اقتصادية وبشرية وطبيعية، ويعطي صورة عن الجالية المغربية في بلاد الشّام، وخاصّة أوضاعها العامّة كما عرض للحديث عن معاملة الحجّاج، ورفع قصيدة إلى صلاح الدّين بهذا الشّأن، وترجع أهمية هذه الرّحلة إلى أنّ معلوماتها دوت بأمانة بعد مشاهدة صاحبها لكلّ ما وصفه. وقد طبعت هذه الرّحلة في مدينة ليدن، بمطبعة بريل 1907م، ثم صدرت عن دار الكتاب اللّبناني في بيروت، ودار الكتاب المصري بالقاهرة.

وهناك إشارة مهمّة لرحلة مفقودة لتاج الدّين السرخسي⁽²⁾ الذي ارتحل من المشرق إلى الأندلس سنة (593/ 1196) كما يقول في النّصّ الذي أورده المقرئ له من هذه الرّحلة المغربية، يقول: «إني وإن كنت خرساني الطّينة، فإنّي شاميّ المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق، فإنّ الخؤولة من المغرب، فحدث باعث يدعوا إلى الرّحلات

(1) الاستبصار، مقدمة المحقق.

(2) السرخسي، تاج الدين بن حمويه، ولد سنة 572/ 1176، كان فاضلاً نزهاً عفيفاً، زار الأندلس والمغرب سنة 593/ 1196 انظر: أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين دار الجيل - بيروت ص 174.

والأسفار ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار، وذلك في حال ريعان الشباب الذي تعضده عزائم النفس بنشاطها، والجوارح بحقه حركاتها وانبساطها، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس، وتجديد العهد ببركاته، واغتنام الأمر في حلول بقاعه ومزاراته، ثم سرت منه إلى الديار المصرية وهي أهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتزدهي، وينتهي وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهي، ثم دخلت الغرب من الاسكندرية في البحر، ودخلت مدينة مراكش أيام السيد أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، فاتصلت بخدمته»⁽¹⁾.

ويؤكد النص الصلة القوية بين المشرق والمغرب، والشعور بحتمية الاتصال الدائم بينهما.

رحلات من القرن 7 / 17:

من أهم رحلات هذا القرن رحلة صالح بن يزيد الرندي⁽²⁾ (ت 1285 / 684) إلى البلاد الحجازية في مصنفه المخطوط (روض الأنس ونزهة النفس) وقد جاء في مقدمة الرحلة أنه طرز هذا الكتاب باسم سلطان غرناطة أي عبد الله محمد الملقب بالفقيه ابن محمد بن الأحمر. ويقع في مجلدين، وقصد الرندي جعله أشبه بالموسوعات فقسمه إلى عشرين باباً، احتوى كل باب موضوعاً مستقلاً عن الموضوعات الأخرى، فقد تناول الباب الأول العالم ومعالمه، وفي الثاني الأرض وما يتعلق بها من الأقاليم، والثالث خصصه لبدء البشر وافتراق الأمم، والرابع تناول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والخامس تكلم فيه عن الخلفاء وأهل البيت، والسادس خصصه لتاريخ الدولة الأموية، والسابع للدولة العباسية، والثامن في أهل الردة، وقد تناول موضوع رحلته الحجازية في بابين من تلك الأبواب هما: الباب الثاني الذي تناول فيه موضوع

(1) النفع، ج3، ص 100-102.

(2) هو أبو الطيب صالح بن يزيد بن موسى بن شريف الرندي، وهو من أوائل الرحالة غير الجغرافيين، وروى عنه جماعة، كان فقيهاً حافظاً، له مقامات بديعة، نشأ في ظل دولة بني الأحمر. انظر: عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ق2، ص 137-138.

الحجاز، حيث تكلم بشيء من التفصيل عن مكة المكرمة، ووصف البيت الحرام، والباب الثالث الخاص ببدء البشر وافتراق الأمم، ومما يؤسف له أن ما يوجد من كتب الرندي هو المجلد الأول، وهو بحوزة د. محمد المنوني، وينتهي عند الباب التاسع ويقع في (139) ورقة، و تحتوي كل صفحة منه على ثلاثة وعشرين سطرا، وهي مكتوبة بخط أندلسي واضح مليح عتيق، مكتوب بمحلول السواك على ورق قديم، والمخطوطة خالية من تاريخ النسخ واسم الناسخ، إلا أن د. المنوني يقدر أن تكون الكتابة قريبة من عصر المؤلف، ويرجح أن تكون من القرن الثامن الهجري، وهناك نسخ مصورة من المخطوطة بحوزة معهد المخطوطات للجامعة العربية وصورة أخرى بالخزانة العامة بالرباط⁽¹⁾.

ورحلة ابن سعيد المغربي الأندلسي الغرناطي⁽²⁾ (1213 / 610 - 1286 / 685) الذي غادر الأندلس وهو في سن التاسعة والعشرين، وقد وصل إلى الإسكندرية سنة (639هـ) وقد تنقل بين المغرب وتونس ومصر والشام والحجاز والعراق، وقد رأى في تجواله في تلك الأقاليم الإسلامية الواسعة كثيرا من العادات التي لم يألفها في الأندلس، ولم يقف عند عادات المجتمع في الشرق، بل سجل مشاهداته وازن بينها وبين المجتمع الأندلسي، فالفسطاط في القرن السابع كما رآها كانت مغبرة الآفاق، غير مستقيمة الشوارع، بيوتها مبنية من الطوب، وأسواقها ضيقة، كثيرة الزحام، والناس يلثمون الطعام داخل الجامع وفي الطرقات غير محتشمين، ولم تكن القاهرة في القرن السابع أسعد حظا، فقد لفت انتباهه وسائل الانتقال الداخلية في الفسطاط، فقد لاحظ استعمال الحمير، وكانت مسيرته من باب زويلة إلى الفسطاط مثيرة للضحك، عند مشاهدته عددا هائلا من الحمير معدا للركوب، ولما أشار إليه المكاري أن يركب حمارا معه ليذهب إلى الفسطاط أنف من ذلك جريا على عادة ما خلفه في المغرب،

(1) د. أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان، جدة، ص 340-341.

(2) عن حياة ابن سعيد، انظر: نفح الطيب، ج 2، ص 262-294-337-370 وما بعدها.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

ولم يطمئن إلا بعد إخبار المكاري له أن ركوب الحمير غير معيب على الأعيان، وقد تحدث ابن سعيد عن الحياة في أحياء القاهرة والفسطاط واصفا الولايم ومجالس اللّهُو والطّرب ومرسلا نفسه على سجيّتها لا تفوته اللّمحات الذّكيّة عند بعض المشاهد⁽¹⁾.
ولابن سعيد رحلتان : الأولى (عدة المستنجز وعقلة المستوفر)⁽²⁾ أشار إليها صاحب ذيل كشف الظنون، والثانية (النّفحة المسكيّة في الرحلة المكيّة) أشار إليها صاحب النّفح⁽³⁾ و صاحب ذيل كشف الظنون⁽⁴⁾.

رحلة أبي القاسم محمد بن علي التجيبي السبتي (1271 / 670 - 1329 / 730) التي أسماها (مستفاد الرّحلة والاغتراب) وهي في ثلاثة مجلّدات ضخمة كما أشار صاحب الدرر الكامنة⁽⁵⁾، يتضمّن الجزء الأوّل خروجه من سبتة إلى مصر، أو من الأندلس إلى مصر، وقد قطع المسلك برا إلى تونس وجلس إلى علمائها أسوة بأسلافه من الرحالين المغاربة، أما الجزء الثاني فقد ابتدأ فيه بذكر مدينة القاهرة، وضمن بقيّة أخبار الحجاز وبيت المقدس والشّام في الجزء الثّالث، وكان قد ارتحل سنة (1270 / 669).

وقد حقّق الجزء الثاني من الرّحلة عبد الحفيظ منصور ونشرته الدّار العربيّة في ليبيا سنة 1975، وهو من مخطوطات دار الكتب القوميّة بتونس مسجّلا تحت رقم (645)، وهذه القطعة تشتمل على تراجم وافية لبعض الرّحالة من أبناء عصره كابن دقيق العيد، كما يصف فيها المشاهد والغرائب في كلّ بلد يمرّ بها.

(1) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، قدم له د. زكي حسن وآخرون، ط1 الأولى من القسم الخاص بمصر، مطبعة فؤاد الأوّل 1953، انظر ص4-12.

(2) إسماعيل باشا بن محمد الباباني إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدّين، دار الفكر 1982، ج4، ص 96.

(3) نفح الطيب، ج2، ص344-350.

(4) ذيل كشف الظنون، ج4، ص 371، وانظر عن حياته : الأنيس المطرب، ص33، والنّفح ط3، ص523.

(5) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، تحقيق محمد سيّد جاد الحق، دار الكتاب الحديث، ج3، ص324-325.

رحلة محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي (ت 721 / 1321) المعروفة باسم (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة)، وقد استطاعت الباحثة الاطلاع على الأجزاء الثاني والثالث والخامس من الرحلة، بتقديم وتحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة وقد طبعت الأجزاء الثلاثة في الدار التونسية الثاني والثالث سنة 1982، والخامس سنة 1988. وقد أشار المحقق أن هذه الرحلة سبعة أجزاء توافر منها بعض قطع متفرقة، هي الجزء وموضوعه تونس عند الورود، والجزء الثالث وموضوعه الإسكندرية ومصر عند الورود، والجزء الخامس وموضوعه الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور، والجزء السابع وموضوعه تونس وسبته في طرق العودة.

وقد وجدت هذه النسخة المغربية من الرحلة الأسكوريال، وكتب بخط معروف واضح جميل، ولا بن رشيد تعليقات على كل الأجزاء المكوّنة، وهذه الأجزاء كما نرى ينقصها الجزء الأول الذي قيد فيه ابن رشيد أخبار خروجه من سبته ووصوله إلى المرية، وتعرفه على وجوه العلماء من سكان الثغور، والرحلة مبتورة بالوسط افقدان الجزء الرابع منها، وموضوعه ديار الشام التي اتجه إليها ابن رشيد عند خروجه من مصر، ثم انطلق منها إلى الوجهة الحجازية⁽¹⁾. وقد خرج ابن رشيد من مسقط رأسه سبته قاصدا الحج سنة (683 / 1284) ولما يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاما متجها إلى تونس عن طريق بجاية، ومتحوّلا منها إلى الإسكندرية، ثم مصر والقاهرة التي بلغها في رجب سنة (684 / 1285) ومنها إلى البلاد الشامية، ثم إلى المدينة ومكة، وتحوّل بعد ذلك إلى مصر، ثم إلى طرابلس، إلى أن انتهى بعد ذلك إلى بيته سنة 686 / 1287. وقد كان في كل مدينة حريصا على الاتصال بعلمائها، والتعرّف على وجوه القوم فيها، فقد روى وسمع وجرت بينه وبين من زارهم من العلماء محاورات

(1) الرحلة، مقدّمة المحقق، ص 35 - 36.

ومناقشات علمية ومطارحات أدبية، ولم يتحدث عن المنازل والديار إلاّ لما ما وبقدر الحاجة صارفا كلّ اهتمامه إلى ملاقات الرجال وزيارة العلماء، وقد كان حريصا على الدقة والضبط والحيطة في الرواية والنقل⁽¹⁾.

ورحلة أبي عبد الله محمد بن العبدري الحياحي المسماة بـ (الرحلة المغربية) حقّقها محمد الفاسي وطبعت في الرباط سنة 1969م.

وقد بدأ العبدري رحلته سنة (1289 / 688) عبر إفريقية قاصدا الحجّ، حيث اجتاز شمال إفريقية مارا بالسوس، ثم تلمسان والجزائر وقسطنطينة وتونس، حتى يصل إلى الإسكندرية ثم إلى مكة، ويعود مارا بفلسطين والقدس. والعبدري لا يكاد يلقى ما يرضيه إلاّ في النادر، ويوجز رأيه في أهل زمانه بقوله: «وقد تعطلّ في هذا العصر موسم الأفاضل، وتبدّد في كل قطر نظام الفضائل، وتفرق أهلها أيادي سبأ، وصاروا حديثا في الناس مستغربا، فعادوا اسما بلا مسمّى، وحرف ما دلّ على معنى، فالمحدث عنهم في مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مغرب»⁽²⁾. والغريب أنّه يلاقي الأفاضل ويطنل في مدحهم وذكر فضائلهم، وقد كان ساخطا في معظم البلدان، إلاّ في تونس فقد أعجب بها فأطنب في مديحها، فقد وجد فيها ما لم يجده في غيرها، وجد أناسا يؤنسونه ويعرفونه بالفضل. وكان لا يظهر ما بأهل البلاد، ولا يطلق لسانه فيهم إلاّ بعد خروجه منها، يقول في مستهلّ رحلته: «وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، ولم يمكن إظهارها هناك، وأظهرتها بعد خروجنا منها»⁽³⁾.

وتعدّ رحلته وثيقة عن الحياة الثقافية والاجتماعية في القرن السابع الهجري عن البلاد التي زارها، وصور عادات أهلها وطبائعهم وطرفا من أخبارهم، منتقدا إيّاها بأسلوب لاذع، ووصف لا يخلو من دقة ملاحظة.

(1) المصدر السابق، ص 32-34.

(2) الرحلة، ص 9.

(3) الرحلة، ص 9.

رحلات من القرن الثامن الهجري:

من رحلات هذا القرن، رحلة أبي محمد بن عبد الله بن محمد التجاني (711/1311) التي قام بها بين سنتي (706/1306 - 708/1308) قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، طبعت في المطبعة الرسمية بتونس سنة 1958م. وقد تجول في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي. ومن سمات هذه الرحلة أنها تعرض لمطالعها أخبار المدن والقرى، وتجعله يحيط علما بأحداثها مع التعريف بالنابعين من أبنائها ما بين فقهاء وقواد وأدباء وصلحاء. وتبين أسماء المدن والنواحي والقبائل التي تسكنها، ويورد وثائق تاريخية مهمة، تتمثل فيها صورة البلاد التونسية من حيث عناصر السكان، وحياتهم الاجتماعية وعاداتهم، والحديث عن جغرافية كل قطر ونباتاته.

أما شيخ الرحالين وأكثرهم طوفا واستيعابا للأخبار في هذا القرن فابن بطوطة صاحب (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) الذي قضى ثمانية وعشرين سنة من حياته ينتقل بين أجزاء العالم، فقد غادر وطنه لأداء فريضة الحج، فخرج من طنجة سنة (725/1325) إلى مصر عبر شمال إفريقيا ثم إلى الشام، وبعد أداء الفريضة زار إيران وشرق إفريقيا، ودخل القرم وحوض الفولغا، وعرج على القسطنطينية، ثم يمعن في الرحلة شرقا إلى خوارزم وبخارى والهند والصين، وبعد أن يعود إلى بلاده يعاوده الحنين إلى السفر فيزور الأندلس والسودان⁽¹⁾.

وقد كان ابن بطوطة من أشد الرحالة عناية بالحديث عن الحياة الاجتماعية في البلاد التي تجول فيها، أكثر من عنايته بالحديث عن الأرض والمدن، وكان يقظ الذهن يصف ما يرى ويسمع، وتنطبع الصور في ذهنه انطبعا جيدا، ويمكن اعتباره مؤرخا اجتماعيا للمسلمين في عصره⁽²⁾.

(1) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1962، ص 190، 187.

(2) الجغرافيا والرحلات، ص 190.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

وقد طبعت رحلته في باريس في منتصف القرن التاسع عشر، مع ترجمة فرنسية على يد المستشرقين ديمغري و سانجنتي، ونشر جب ملخصا لها بالإنجليزية سنة 1929م، وطبعها المكتبة الأزهرية في مصر سنة 1928م، وفي المطبعة الأميرية في القاهرة بتحقيق محمد جاد المولى سنة 1934م، وطبعت في مؤسسة الرسالة في بيروت بتحقيق علي المنتصر الكتاني سنة 1985، ثم طبعت سنة 1987م بدار الكتاب في بيروت وبتحقيق طلال حرب.

رحلة خالد بن عيسى البلوي (713 / 1313 - 765 / 1363) المسمات بـ (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) التي حققها حسن السائح وطبعت في الرباط. وقد ارتحل البلوي إلى المشرق سنة (736 / 1335) وسجل ملاحظاته ومشاهداته معتمدا على تجربته الشخصية لا على كتب الرحالة والمؤرخين، وقد التقى برحالة وأدباء منهم ابن الحاج النميري، واتصل به في الإسكندرية، وكم دافع عن المغاربة والأندلسيين، وانتقد ديوان الجمارك بالإسكندرية لتفتيش الصادر والوارد، وكان قد سبقه ابن جبير والعبدري وابن بطوطة إلى ذلك، حيث رفع ابن جبير قصيدة في الموضوع ذاته إلى صلاح الدين.

أما لسان الدين بن الخطيب (713 / 1313 - 776 / 1374) فله رحلتان قصيرتان: الأولى عن صورة مقامة تصف رحلة برفقة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن نصر (733 / 1332 - 755 / 1354) لتفقد أحوال الجانب الشرقي من غرناطة، وقد أورد د. أحمد مختار العبادي دراسة وافية لهذه المقامة، وتفصيلا عن الأصول التي اعتمد عليها في نشرها، في كتابه (مشهدات لسان الدين ابن الخطيب) الذي طبعته مؤسسة الشباب، الإسكندرية 1983م.

وقد بدأت الرحلة من غرناطة في 17 محرم 748 / 1347، واتجهت نحو وادي آش ثم بسطة ومرت بعد ذلك ببلدة ميرة، وقد فرغ من تدوينها في (8 صفر 748 / 1347) أي قبل أن تنقضي ثلاثة أسابيع عن بدئها، فهي رحلة صغيرة في الزمان والمكان، وقد

زادها قصرا استعماله السَّجَع في وصفها، فضاع معظم الحيز في سجعات مترادفات، وفي غمار هذا ضاعت دقة الوصف وكان في بعض الأحيان يسترسل مع موسيقى السَّجَعات المتشابهة، فيغرق في المبالغة، وقد نعثر على بعض المعلومات عن بسطة والمسجد الذي فيها واسم أبوابه⁽¹⁾.

أما الرحلة الثانية فقد أوردتها في (تفاضة الجراب في علالة الاغتراب) تحقيق د. أحمد مختار العبادي، و د. عبد العزيز الأهواني صادر عن دار الكتاب العربي القاهرة، وقد كتب ابن الخطيب هذه الصفحات عن رحلته إلى جبل هنتاة، وهو جزء من جبال الأطلس الغربيّة، وهنتاة نسبة إلى قبيلة مصموديّة صنهاجيّة كان لها دور في تاريخ المغرب أيام الموحّدين، وقد ظلّ ابن الخطيب هناك من (760/ 1358 - 763/ 1361)، وقد أورد عبارة كشف عن حقيقة هدفه من تلك الرحلة، فقد قال في خطاب له قبل رحيله إلى عامر بن محمد بن علي الهنتاتي شيخ ذلك الجبل : «فلما حم الواقع وعجز عن خرق الدّولة الأندلسيّة الراقع، وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع وحسنت من استدعائك أيادي المواقع، قوي العزم، وإن لم يكن ضعيفا وعرضت على نفسي السفر بسبيلك فألفيته خفيفا»⁽²⁾. ومعنى هذا أن ابن الخطيب سعى إلى أن يستدعيه هذا الشيخ لزيارته أملا في كسب صداقة هذا الشيخ القويّ، فيجد حمي ومأوى من الفتن والمخاوف التي كان يجتازها، وهو يشير كما سبق إلى حال الدّولة الأندلسيّة، وفي ظروف كهذه لا تتطلّب من ابن الخطيب التفاتا إلى خصائص طبيعيّة، أو ظواهر جغرافيّة، بل إنّنا نكلّفه شططا إذا انتظرنا منه أن يصف مارأى وما شهد، وأسلوبه فيها بادي التكلّف مليء بالصّنع اللّفظيّة⁽³⁾.

ومن رحلات هذا القرن أيضا رحلة (فيض العباب وإفاضة مدح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزاب) لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم

(1) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، ص 527-528.

(2) نقاضة الجراب، ص 45.

(3) تاريخ الجغرافيا، ص 591.

النميري المعروف بابن الحاج الغرناطي⁽¹⁾ (712 / 1312 - 774 / 1372) وهي مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني، تحقيق د. محمد بن شقرون، طبعة الرباط 1984م. وقد بدأت الرحلة سنة (758 / 1356) وجاءت على مرحلتين: الأولى كانت داخل المغرب من فاس إلى سلا والرجوع إليها. والثانية من فاس إلى قسطنطينة ثم إلى الزاب ثم الإياب، وإن كان ابن الحاج مؤلف هذه الرحلة وكاتبها، فإن مخططها ومبدعها ومنفذ جميع مراحلها هو عبد الملك أبو عنان المريني (729 / 1328 - 759 / 1357) ومعنى ذلك أن الأول معاصر للثاني، والصلة وثيقة بين الرجلين، صلة خادم بمخدومه، وزمن الرحلة زمن مرحلة خاصة من مراحل عهد دولة بني مرين، وهي مرحلة الاستقرار والنضج⁽²⁾.

وقد جاءت هذه الرحلة لأسباب دينية وسياسية أبرزها توحيد صفوف المسلمين، والقضاء على الفتن التي تثيرها الأعراب في النواحي الشرقية⁽³⁾، ومن شأن العوامل التي زامنت الرحلة أن تبعد كاتبها عن الموضوعية، عوامل إرضاء إرادة موجهة ورغبات سلطة حاكمة، لهذه الأسباب لا يمكن أن ينتظر من ابن الحاج سوى رواية مكيفة مصوغة في قالب أحكمت صبغته، وأحيطت جنباته بكامل الحيلة والتدبر، وابن الحاج حينما يخبر ويروي يعني أشد العناية بوصف الظروف والملابسات والقرائن والمؤشرات التي تجعل الحدث يتخذ أبعادا واسعة، ينقل القارئ من المجردات إلى المحسوسات المدركة بالعين والأذن والصور الذهنية، فيجعل القارئ يدرك ويفكر ويتخيل لذلك نراه مهتماً بالمرئيات والمسموعات من أصوات حيوانات ونباتات، فيضفي عليها من نفسه ويبث فيها من روحه وعاطفته⁽⁴⁾ من ذلك وصفه للبغال الإسبانية، والحوادث الطبيعية الطارئة كالرياح والعواصف والأمطار الطوفانية الخطيرة.

(1) انظر عن حياته : نفع الطيب، ج7، ص 109.

(2) الرحلة، مقدمة المحقق، ص 10.

(3) الرحلة، المقدمة ص 52.

(4) الرحلة، المقدمة ص 57.

وقد تجلّت قدرته الفنية في رسم صور الخيل، فكان رساما مطبوعا أهله ثقافته الأدبية واللغوية لوصف الألوان والحوافر والقوادم والرؤوس والآذان، يقول: «واجتمعت الخلائق وتزاحمت الفيالق، وتصاهلت الجرد السّوابق، ولاعبت ظلالها الضمر اللّواحق، من كل أدهم أشبه المسلك العتيق، لكن خالطه الكافور فهو بوجهه تسمى غرة، وحكى اللّيل البهيم، لكن حجوله الصّبح الذي بهر أنوارا وراق سره، مسرج بالهلال، ملجم بالنجوم، طروب كأنما عل بالرحيق المختوم ... ومن أشهب حديدي طويل الذّيل، كأنما صور من طينه الصبح لكن بعد أن خلط بطينه اللّيل، سريع المرور كالسّحاب، بارز العين كالفجر الصّادق، طويل الجيد كالفجر الكاذب، ينصب عرقا فكأنما استعار وقوع النّدى، ويقدح بالصفاح نارا وكأنّها التي اضطربت في صدور العدي ... وآخر كأنما لبس الأصيل يوم ملاحمه، إلا أنّ اللّيل مسح بيده على عرفه وقوائمه، وألقى على وجهه أثرا من مباسمه»⁽¹⁾.

وهناك إشارات لرحلات أخرى من القرن الثامن هي رحلة الأفق المشرق لابن الطيب، أوردها ابن الخوجة محقق رحلة ابن رشيد⁽²⁾، ورحلة الرعيني السراج أوردها حسن السايح محقق تاج المفرق⁽³⁾.

رحلات من القرن 9 / 15:

سجل ابن خلدون (737 / 1336 - 808 / 1405) في تاريخه أهم أحداث حياته في كتاب ذيل به كتاب العبر سماه (التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب، ورحلته غربا وشرقا) وقد طبع كتابه العبر في بولاق بمصر سنة 1284 / 1867 في سبعة أجزاء، وطبع سنة 1968 بدار الكتاب اللّبناني، وأضاف ابن خلدون في التعريف تاريخ المراحل الأخيرة من حياته التي وصل في رواية الحوادث فيها إلى سنة (807 / 1404) وقد غلبت عليه ملكة الكتابة التاريخية على الوصف الجغرافي ورواية المشاهدات المرئية، مسجلا حوادث

(1) الرحلة ، ص 126.

(2) رحلة ابن رشيد، المقدمة، ج2، ص31.

(3) تاج المفرق، المقدمة، ج1، ص9.

حياته، والعلماء الذين التقى بهم ودرس عليهم من الأندلسيين⁽¹⁾.

ومن رحلات هذا القرن، رحلة أبي الحسن علي بن القرشي الأندلسي القلصادي (ت791هـ)، فقد حقق هذه الرحلة محمد أبو الأجفان، وطبعها الشركة التونسية للتوزيع 1978م، وقد ابتدأ القلصادي رحلته سنة 1436 / 840، وبدأ بتلمسان فأخذ من أشهر أعلامها، وحضر المجالس العلمية، ورحلته حجازية أدبية، ولم يجعلها مقتصرة على الوصف للمعالم وذكر الأحداث التي حدثت له، وهو يتوخى الإيجاز غالبا ولا يطنب في الوصف، ولا يعرض الجزئيات الكثيرة، وقد طغى على أسلوبه السجع الذي لا يعتربه تكلف كثير، وقد جاءت رحلته خالية مما توافر في بعض الرحلات الأخرى من الأمور الغريبة المتسمة بالطابع الخيالي⁽²⁾.

وهناك سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة 844هـ لمؤلف مجهول، ورد نصّها في مجلة أندلسيات (مقتطفات من بعض المجلات الفرنسية والاسبانية والعربية)، وقد عثر على هذا النص د. عبد العزيز الأهواني سنة 1951م، وهو رحلة كتبها بقلمه سفير غرناطي جاء إلى القاهرة في عهد المماليك يلتمس من الظاهر جقمق معونة يتقوى بها المسلمون في الدفاع عن أنفسهم ضد جيرانهم المسيحيين في إسبانيا، والورقات التي نقل ما فيها موجودة بالمكتبة الأهلية بمدرّيد، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع، وإنّما هي ضمن مجاميع الدشت التي تمتلكها المكتبة المذكورة التي لم يفهرسها أحد، وهي في المجموعة التي تحمل رقم 18602⁽³⁾.

ومن الذين ارتحلوا من المشرق إلى المغرب في هذا القرن عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهر⁽⁴⁾ الذي ارتحل سنة (866 / 1461) وقضى في رحلته بضع سنوات

(1) الرحلة والرحالة المسلمون، ص 221، 224.

(2) الرحلة، مقدّمة المحقق.

(3) أندلسيات، سفارة سياسية، ص 95.

(4) هو عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيعي، الملطي ثم القاهري الحنفي، ولد سنة 1440 / 844، قرأ في دمشق ونشأ فيها وفي حلب، انظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الحياة - بيروت، ج4، ص 27.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

في زيارة الممالك و الدويلات الإفريقية الواقعة في حكم الحفصيين وبني عبد الواد وبني نصر، وكان سفره من الإسكندرية على إحدى سفن البندقية، ومر بجزيرة ردوس ثم نزل في تونس بعد رحلة دامت ثلاثة وثلاثين يوما، وبعد أن أقام عدة أشهر في عاصمة بني حفص غادرها إلى إحدى سفن البندقية إلى طرابلس، ومنها إلى قابس ثم القيروان، ورجع بعد ذلك إلى تونس ثم رحل عنها إلى القسطنطينية وبجايا والجزائر، وأبحر على باخرة جنوية إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة (870 / 1465) وزار مالقة وغرناطة في شهرين ونصف ثم رجع إلى وهران وغادرها بعد عدة أشهر إلى تونس، ثم رجع إلى مصر مارا بليبيا فوصل إلى الإسكندرية في شوال سنة (871 / 1466) ومما يؤسف له أن عبد الباسط لم يدون أخبار رحلته ولكنه كتبها في مواضع متفرقة في كتابه (الروض الباسم)، وقد قام المستشرق ليفي ديلافيد بنشر المقتطفات الخاصة بالأندلس مع ترجمة وتعليقات في مجلة الأندلس سنة 1933م، بينما قام الأستاذ برنشويج بنشر الأجزاء الخاصة بتونس والجزائر ومراكش، ومعها ترجمة فرنسية وتعليقات، وقد اطلعت عليها الباحثة في أندلسيات (مقتطفات من بعض المجلات الفرنسية والاسبانية والعربية) وهي وثائق بالغة الأهمية في تاريخ المغرب في القرن التاسع الهجري، فهي تبين جوانب شتى من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وما نقله من أخبار يشهد بدقة ملاحظاته ويشير إلى نظم تلك البلاد في عصره، وإلى أحوالها الاقتصادية والاجتماعية.

ومن الرحلات التي أشير إليها في القرن 9 / 15، رحلة أبي العباس أحمد بن الحسن بن منقذ القسطنطيني (770 / 1368 - 809 / 1406)⁽¹⁾ ورحلة زروق⁽²⁾ ورحلة محمد بن سليمان بن داود الجزولي (ت 893 / 1487)⁽³⁾.

(1) تاج المفرق، ط1، المقدمة، ص 77.

(2) تاج المفرق، ط1، مقدمة المحقق، ص 90.

(3) تاج المفرق، ج 1، مقدمة المحقق، ص 77، ذكر المحقق أنها ذكرت في لقط الفوائد لابن القاضي، وقد أورد صاحب ذيل كشف الظنون اسما لهذا الكتاب ج 4، ص 408.

تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة ————— دراسات أندلسية —————

تؤكد هذه الإشارات الكثيرة والمتنوعة لرحلات مغربية وأندلسية على ضرورة تتبع هذه الرحلات ودراستها في مظانها مطبوعة ومخطوطة ومتفرقة، لأنها تكشف عن أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية قد لا نجد بعضها في كتب تاريخية وأدبية، إذ إنها تسجل الأحداث بصورة واقعية وممثل عليها بالحوادث والقصص والمشاهدات.